

ملخص:

تبحث هذه الدراسة في الدور الاجتماعي للطرق الصوفية في الجزائر خلال الفترة الممتدة بين نهاية العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، مع التركيز على إسهاماتها في مجالات الخدمة الاجتماعية، التعليم، وترسيخ مبادئ الدين الإسلامي. يُعرّف مفهوم الخدمة الاجتماعية بأنه جملة الجهود المنظمة التي تهدف إلى مساعدة الأفراد والجماعات على تحسين أوضاعهم. وقد ظهرت الخدمة الاجتماعية بصيغتها الحديثة في الغرب نتيجة التحولات الصناعية، بينما تطورت في المجتمعات الإسلامية ضمن إطار ديني قائم على التكافل والوقف والصدقات. وقد أدت الزوايا دورًا مشاهيًا قبل ظهور المؤسسات الاجتماعية الحديثة.

وتبرز الدراسة الدور التربوي للطرق الصوفية من خلال مساهمتها في نشر التعليم الديني وتدريس القرآن والعلوم الشرعية. حيث اعتمدت الزوايا على طرق تدريس تجمع بين الحفظ والتلقين والمجالس العلمية، مع توفير الإقامة للطلبة، مما جعلها مؤسسات تعليمية واجتماعية متكاملة.

كما لعبت الطرق الصوفية دورًا مركزيًا في نشر مبادئ الدين الإسلامي والحفاظ على الهوية الدينية للمجتمع الجزائري، خاصة في المناطق الريفية. وساهم شيوخ الزوايا في حل النزاعات، الوساطة، وتقديم العون للفقراء والمسافرين، مما جعل الطرق الصوفية عنصرًا أساسيًا في تماسك المجتمع خلال تلك المرحلة التاريخية الحساسة. **الكلمات المفتاحية :** الطرق الصوفية، الزوايا، الخدمة الاجتماعية، التعليم الديني.

الدور الاجتماعي للطرق الصوفية في الجزائر نهاية العهد العثماني - بداية الاحتلال

The Social Role of Sufi
Orders in Algeria from the
End of the Ottoman Era to the
Beginning of the French
Occupation

أمينة قاسمي

khalidobedo@gmail.com

مقدمة البحث:

تُعَدّ الزوايا مؤسسات دينية مرتبطة بالطرق الصوفية، يجتمع فيها المريدون لممارسة الأذكار وتلاوة القرآن الكريم. كما تؤدي وظيفة استقبال طلبة العلم والوافدين الذين يلجؤون إليها طلباً للاستشارة الشرعية أو لحل الخلافات الاجتماعية. وقد تجاوزت هذه المؤسسات دورها الديني التقليدي لتصبح فاعلاً مؤثراً في التاريخ الاجتماعي والثقافي للجزائر خلال العهد العثماني وفترة الاحتلال الفرنسي على حدّ سواء. فقد أسهمت في صون مقومات الهوية الوطنية، وعلى رأسها اللغة العربية والدين الإسلامي، وشكّلت أحد أهم الحصون التي واجهت محاولات الاستعمار لطمس الشخصية الوطنية على امتداد أكثر من قرن. وإلى جانب ذلك، اضطلعت الزوايا بأدوار اجتماعية متقدمة من خلال توفير الإيواء للفقراء والمسافرين، واحتضان جلسات الصلح وتسوية النزاعات بين الخصوم، الأمر الذي جعل منها فضاءات جامعة تجمع بين الوظيفة الروحية والتعليمية والاجتماعية داخل المجتمع الجزائري.

أولاً : مفهوم الخدمة الاجتماعية:

إن تعريف بالخدمة الاجتماعية وبيان مفهومها، وتتبع مراحلها موضوع لا حدود له ويمكن التطرق لابرز ملاحظاتها من خلال الاوجه التالية:

1/ تعريف الخدمة الاجتماعية :

يشير مفهوم الخدمة الاجتماعية في دلالة اللغوية إلى تركيب يتكون من لفظين، لكل منهما معنى محدد. فمصطلح الخدمة يحيل بوجه عام إلى الجهود أو الأعمال التي تُقدّم

لتحقيق منفعة ما، أو لمعالجة ضرر قائم أو محتمل، إذ يُعَدّ منع الضرر أو الحد من آثاره شكلاً من أشكال الخدمة بحد ذاته. أما لفظ الاجتماعية فهو مشتق من كلمة الاجتماع، ويُقصد به تجمع الأفراد في إطار إنساني يتسم بالوعي بالمصالح والقيم والأهداف المشتركة بينهم.¹

و المعنى الاصطلاحي للخدمة الاجتماعية فيتضمن عدة تعاريف نبرز أهمها :

- إن الخدمة الاجتماعية تنسجم ، وتتوافق قيمها ، ومكوناتها، وأهدافها تبعاً لاحتياجات الناس²
- يرتبط تاريخ الخدمة الاجتماعية بظهور الإنسان ذاته؛ فقد أسهمت الدوافع الدينية والإنسانية في نشأة هذا النشاط منذ الأزمنة الأولى، من خلال تشجيع الأفراد على مدّ يد العون للضعفاء والعجزة والفقراء والمحتاجين. وبذلك ترسخت الخدمة الاجتماعية بوصفها التزاماً إنسانياً أصيلاً أجمعت الشرائع الدينية على أهميته، ولا سيما الشريعة الإسلامية التي أكدت على قيم التكافل والتضامن في بنيتها الأخلاقية والاجتماعية.³

تبرز الخدمة الاجتماعية بوصفها أداة محورية ليس فقط لتحسين الأوضاع الإنسانية، بل وأيضاً لإعادة صياغة استجابة المجتمع للمشكلات المزمنة، مما يعزز من قدرته على التعامل معها بفاعلية وإيجابية. تستهدف الخدمة الاجتماعية، في جوهرها، تحقيق العدالة الاجتماعية والارتقاء بالظروف المعيشية، من خلال دعم كل الوسائل والإمكانيات الكفيلة بتوفير الرفاه والرخاء لجميع الأفراد والأسر والجماعات في المجتمع. يترافق هذا الجهد مع ضرورة معالجة القضايا

³ عريوة عبد الله ، طرق الوقاية و العلاج لظاهرة الانتحار في المجتمع

الجزائري من منظور الخدمة الاجتماعية الإسلامية ، رسالة ماجستير ،

تخصص علم الاجتماع الديني ، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية ، جامعة

الجزائر ، 2008 - 2009، ص 28

¹ عبد الحميد محمد عبد الحميد ، علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة ، 1997 ،

ص 122.

² انتصار محمد يوسف ، ضرورة الإشراف الاجتماعي لمرحلة الأساس في السودان،

رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة إفريقيا العالمية الخرطوم

1999م

– تخفي الآلام التي تنشأ عن البؤس وهي الخدمة الاجتماعية المملطة.

– وضع الأفراد والأسر والجماعات في ظروف ملائمة وهي الخدمة الاجتماعية الشفائية.

– منع وقوع الولايات الاجتماعية وهي الخدمة الاجتماعية الوقائية.

– تحسين حال المجتمع ورفع مستوى المعيشة وهي الخدمة الاجتماعية الإنسانية⁶

3/ الخدمة الاجتماعية في المجتمعات الإسلامية:

على الرغم من أن المجتمعات الغربية في مطلع القرن التاسع عشر اعتمدت على المؤسسات الدينية كالكنائس كقواعد أساسية لتقديم الخدمات الاجتماعية، فإن الدين الإسلامي كان سبباً في ترسيخ وتطبيق مبادئ هذه الخدمة. وتعد فريضة الزكاة، التي هي ركن من أركان الإسلام الخمسة، التعبير الأوضح عن مفهوم الخدمة الاجتماعية الحقيقية في مجال إعانة الفقراء. فقد أقرّ الشارع الحكيم الزكاة بوصفها حقاً معلوماً للفقير يُدفع إليه من أموال الأغنياء، مما يجسد مبدأ التكافل الاجتماعي. بالإضافة إلى ذلك، شجّع الإسلام على الإنفاق ومساعدة المحتاجين، كما يتضح من قوله تعالى: "و أنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم للتهلكة، و أحسنوا إن الله يحب المحسنين"⁷

تجلّت أهمية الخدمة الاجتماعية في البروز المؤسسي للجمعيات الخيرية، التي بدأت في الظهور بشكل ملحوظ أواخر القرن التاسع عشر. ويُمكن اعتبار العديد من المبادرات نماذج بارزة لهذا التطور؛ منها الجمعية الإسلامية التي تأسست عام 1892، والتي ركّزت على مجالات التعليم ونشر المبادئ

الاجتماعية القائمة وإيجاد حلول مستدامة لها على مختلف المستويات المجتمعية. يولي ممارسو الخدمة الاجتماعية اهتماماً خاصاً بتشخيص المشكلات الاجتماعية، فهماً لأسبابها وتبعاتها على حياة الأفراد، كما يتفاعلون مع الأفراد، والأسر، والجماعات، والمؤسسات، والمجتمعات ككل. ومن خلال ما سبق يتبين أن الخدمة الاجتماعية هي :

المعرفة النظرية والعلمية لمساعدة الفرد والجماعة والمجتمع وهي خدمة فردية وجماعية واجتماعية، فالمعرفة النظرية هي دراسة الحالة ومحاولة الوصول إلى نظريات تفسرها وقوانين تحكمها.

والمعرفة العلمية هي دراسة الحالة وإيجاد العلاج والحلول لها ثم تنفيذ الخطة للقضاء على المشكلة والمساعدة هي عبارة عن تلك الجهود المبذولة لفائدة الفرد و الجماعة والمجتمع⁴.

2/ الخدمة الاجتماعية في المجتمعات الغربية:

للخدمة الاجتماعية جذور عميقة تمتد عبر التاريخ الإنساني، وكانت ممارساتها سائدة في المجتمعات القديمة، لا سيما في الحضارات الإسلامية. ومع ذلك، فإن ظهورها بمفهومها الحديث والمنظم يعود إلى ظروف محددة شهدتها أوروبا في القرن التاسع عشر. لقد مثّل نشوؤها استجابة مباشرة للتحوّلات والتحديات الاجتماعية التي أفرزتها الثورة الصناعية. وفي هذا السياق، سُنّت في إنجلترا، مع بداية القرن التاسع عشر، تشريعات سمحت لفقراء كل منطقة باللجوء إلى المؤسسات الدينية لطلب العون والتوجيه.⁵

وعرفها المؤتمر الدولي للخدمة الاجتماعية في باريس 1928: عبارة عن مجموع الجهود لتقديم المساعدة في النواحي التالية:

⁴ - هزري عبد الرحمان - فشار عطاء الله ، دور زوايا منطقة الجلفة في الخدمة الاجتماعية إبان الفترة الاستعمارية ، مقال ، جامعة الجلفة ،

⁵ عريوة عبد الله، المرجع السابق ، ص 31

⁶ هزري عبد الرحمان - فشار عطاء الله ، مقال سابق. ص 16.

⁷ سورة البقرة، الآية 194 .

واجه تعليم الزوايا في الجزائر، على العموم، حملة منظمة من المحاصرة والمخاربة من قبل الإدارة الاستعمارية الفرنسية. فمنذ المراحل الأولى للاحتلال، سعت فرنسا إلى استقطاب أبناء الجزائريين نحو المدارس الفرنسية في المراكز الحضرية. وفي المرحلة الثانية، كثفت الإدارة الاستعمارية جهودها بإنشاء ثلاث مدارس إقليمية كان هدفها امتصاص أعداد التلاميذ الذين كانوا يلتحقون بالزوايا الريفية وبمراكز المرباطين لتلقي العلم، أو أولئك الذين كانوا يتوجهون إلى المعاهد الإسلامية خارج الحدود الجزائرية. أما خلال المرحلة الثالثة من هذه الاستراتيجية، فقد عمد الفرنسيون إلى تأسيس المدرسة الابتدائية الفرنسية بمحاذاة الزوايا، مما ضيق بشدة على مجال نشاطها. كما فُتح باب "التدجين والتوظيف" مع قادة الزوايا بهدف تحييد دورهم، لتتكامل بذلك جوانب محاربة الزوايا على عدة مستويات 10 لذلك يظهر أنه من الصعب تحجيم ما قامت به هذه الزوايا في سبيل تحفيظ القرآن الكريم ونشر الثقافة العربية الإسلامية في ظروف كان يهيمن عليها الاستبداد إضافة إلى معارضة المعمرين الذين صرحوا بها في عدة مناسبات "فلولا هذه المراكز لأصبح الأطفال الجزائريين كلهم معرضين للجهل والامية" هذا ما أعلنت عنه اللجنة المكلفة سنة 1891 من طرف المجلس الوطني الفرنسي للتحقيق حول التعليم في بلادنا. فقالت بأن هذا التعليم كان في زوايا مسيرة من طرف أهل البلاد يعلم فيها تحفيظ وتفسير القرآن وقواعد اللغة العربية ولم تجد مؤسسات أخرى لتعليم أبنائهم 11.

الدينية. إضافة إلى ذلك، برزت جمعية العروة الوثقى، التي أنشئت في الإسكندرية في العام ذاته (1892)، والتي انطلقت بأهداف تعليمية في المقام الأول، ثم وسّعت نطاق اهتماماتها لاحقاً ليشمل قضايا حماية الطفولة والأمومة ورعاية الأيتام. 8

ثانيا : دور الطرق الصوفية في نشر التعليم و مبادئ الدين و الحفاظ عليها :

على مدار أكثر من قرن حارب الاحتلال الفرنسي اللغة العربية لأنها وعاء الدين ووسيلة لفهم الإسلام. وحاول أن تهيدها بلغة المستعمر تمهيدا لتنصير أبناء الشعب الجزائري وطمس كل معالم هويتهم العربية الإسلامية. لكن الزوايا كغيرها من المؤسسات الشعبية كالمساجد والكتاتيب القرآنية وقفت له بالمرصاد من خلال دورها الديني.

1/ دور الطرق الصوفية في التعليم :

لقد كانت الزوايا في الجزائر تمثل مراكز إشعاع ديني يقوم على أساس تعليم القرآن وتحفيظه هذا الدور التعليمي الإيجابي شكل في الوقت نفسه خطرا بالنسبة للجهات الفرنسية التي كانت تنظر إلى شيوخ الزوايا ومدرسيها بأنهم متزمتين ومتعصبين .

حيث كانوا يغرسون في أذهان الطلبة والتلاميذ فكرة مقاومة العدو ومحاربه في الوقت الذي كانت فيه السلطات الفرنسية تحاول إخضاع الزوايا لها 9

¹⁰ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989، الجزء الثالث ص 173

¹¹ الطاهر زرهوني : التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، وحدة الرغاية ، الجزائر ، 1994 ، ص 14.

⁸ رشيد زرواتي ، مدخل للخدمة الاجتماعية ، مؤسسة ابن سينا للطباعة و النشر و التوزيع و منشورات جليطي ، الجزائر ، 1419 هـ - 2000 م ص 23

⁹ Y vonne Turin : Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, école médecine religion, 1830/ 1870, année 1978, p 28

تتمثل أهم مهام الزوايا في أوقات السلم في التربية والتعليم، بالإضافة إلى الاضطلاع بالأعمال الخيرية كإطعام الفقراء وإيواء عابري السبيل. لكن التركيز الحالي ينصب على استجلاء البرامج والأساليب المتبعة في التعليم والتدريس داخل هذه المؤسسات. لم تكن الزوايا تعتمد مناهج منظمة في مرحلة الدراسة من حيث الكتب المقررة، أو إجراء الامتحانات، أو توزيع الطلاب وفقاً للمستويات والأعمار، أو وجود أطر تفتيش ونظم تعليمية حديثة. بل كان التعليم يسير فيها بمنهجية تقليدية؛ حيث يواصل الطلاب دراستهم لسنوات قد تطول أو تقصر. ويتم التركيز على تدريس مؤلف أو مؤلفين في الفقه المالكي — غالباً ما يكون شرح الدردير ومتمن سيدي خليل بأجزائه الأربعة — تُكرر قراءتها عدة مرات على مدار تلك السنوات. ويُضاف إلى ذلك تدريس كتاب أو كتابين في البلاغة بعد إتمام عملية حفظ القرآن الكريم وإتقانه بشكل جيد.¹² وبما أن منهج الإسلام في الأخلاق هو كتاب الله الذي يحفظ ويتلى وتبذل الجهود وإن كانت محدودة لفهم آياته وخاصة ما ينطق منها بالعقيدة والدين والأخلاق. فإن الزوايا أخذت هذا المنهج كأرضية يقوم عليها التعليم، وإن كان هذا التعليم يقتصر على الدين واللغة العربية والتربية الروحية والخلقية فإنه القاعدة التي ترسى عليها حياة الفرد والمجتمع في هذه الزوايا¹³ تتماثل حالة الزوايا التعليمية في جوهرها مع وضع معاهد التعليم العربي التقليدية، إذ بقي التعليم فيها يتبع المنهج القديم. يبدأ هذا المنهج بحفظ القرآن الكريم ومختلف المتون العلمية، ثم ينتقل الطلاب بعد ذلك إلى دراسة الفقه والنحو والصرف وغيرها من العلوم الشرعية واللغوية. ونتيجة لذلك، ظلت مناهج هذا

النمط التعليمي ثابتة دون تغيير يُذكر لقرون طويلة. ومع ذلك، يُستثنى من هذه الحالة التقليدية ذلك التعليم الذي كانت تقدمه بعض الزوايا القليلة المتميزة، مثل زاوية الشيخ علي بن عمر بطولقة، وزاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي بمنطقة جرجرة، وزاوية الشيخ المختار بأولاد جلال، بالإضافة إلى زاوية الهامل بالقرب من مدينة بوسعادة. فقد تميزت هذه الزوايا بنوع من التنظيم المؤسسي في برامجها الدراسية.¹⁴

2/ طرق التدريس في الزوايا:

إن أهم الطرق التعليمية السائدة في الزوايا تعتمد على طريقة الحفظ والتلقين أو طريقة المادة التي تعتمد على الإلقاء والإملاء من جانب المعلمين والاستماع والحفظ من جانب المتعلمين وهي الطريقة التي يكون فيها موقف المتعلمين سلبياً في معظم الأحيان¹⁵

في هذا النظام التعليمي، يضطلع المعلم (الشيخ) (بالدور المحوري؛ فهو المسؤول عن إعداد المادة التعليمية وشرحها وتحليلها بالتفصيل. في المقابل، يقع على عاتق المتعلمين واجب تقبل ما يقدمه المعلم في غالب الأحيان بالقبول والتسليم. يجلس الطلاب في حلقات داخل مسجد الزاوية أو مسجد الطلبة محيطين بالشيخ، وهي طريقة كانت سائدة في الأزهر الشريف قبل تحويله إلى جامعة حديثة. كانوا يستمعون إلى الدرس المقرّر عليهم، ولا تزال هذه المنهجية التقليدية متبعة في التدريس داخل الزوايا بنفس الشكل الذي كانت عليه في الماضي. وعندما يصل الطالب إلى مستوى علمي محدد، يتم

¹⁴ مقابلة مع الشيخ شتاتحة عمر، امام استاذ بمسجد علي بن ابي طالب، عميد الأئمة بمسعد، درس بزاوية علي بن عمر بطولقة و الزاوية المختارية بأولاد جلال. 2017.

¹⁵ محمد نسيب، نفس المرجع، ص 32

¹² تركي رابح : التعليم القومي والشخصية الجزائرية الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 2. الجزائر، 1981، ص 267

¹³ محمد نسيب. زوايا العلم والقرآن بالجزائر. دار الفكر، الجزائر،

1998.ص 15

-لقد كان لخزائن كتب الزوايا دورا كبيرا في حياة
طلبة العلم والعلماء.

-الزوايا ظلت رغم كل الرياح العاتية مراكز لنشر
العلم ورعاية المدرسين والطلبة.

- ساهمت الزوايا في ترسيخ اللغة العربية، وتعميق
معرفة الناس بشؤون دينهم.¹⁹

**ثالثا : دور الطرق الصوفية في نشر مبادئ الدين
الاسلامي و الحفاظ عليها :**

على الرغم من انتقال الجزائر من مرحلة
الحكم العثماني الإسلامي إلى وطأة الاستعمار الفرنسي،
نجحت الزوايا في المحافظة على دورها الديني المحوري والبارز .
وقد استمرت هذه المؤسسات على ذات المنهج السابق،
جاعلة من نشر تعاليم الدين ومبادئه أهم أولوياتها. وفي فترة
الاحتلال الفرنسي، كانت الزوايا تُعدّ المؤسسات التعليمية
الوحيدة أو الغالبة التي اضطلعت بمهمة تعليم المبادئ الدينية
ونشرها، خاصة وأن المستعمر الفرنسي سعى بشكل ممنهج
إلى تحويل غالبية المساجد والمنارات الإسلامية إلى كنائس .
وبفضل صمودها، تمكنت هذه المدارس الشعبية والمعاهد
الإسلامية المتواضعة من الحفاظ على الهوية والثقافة العربية
الإسلامية للأمة.²⁰

على الرغم من بساطة مناهج التعليم في الزوايا،
والمساجد، والكتاتيب القرآنية، والمدارس الحرة، فقد كان لهذا
التعليم دور جوهري في صون روح الأمة وحماية شخصيتها
وعقيدتها، ورفع مستوى معنوياتها. ونتيجة لذلك، تمسكت
الأمة بدينها واعتزت بقيمتها وعاداتها وتقاليدها وتعلقت
بلغتها، حتى وهي تواجه حملات المحاربة والحرمان من الوسائل
والدعم، والعزل عن سائر ميادين الحياة. وبالرغم من هذه

منحه الإجازة، ويصبح مؤهلاً لتولي مهمة التدريس وتعليم من
هم أقل منه مستوى 16 .

كما أن مشايخ الزوايا هم الذين يتولون النظر فيما
ينبغي اقتناؤه من الكتب وتكليف الطلبة بمطالعة الكتب غير
المتداولة وكتب التاريخ والجغرافيا والمقامات وسير الملوك وما
شابه ذلك من الكتب القديمة النادرة التي بها تنفتح أبصارهم
على المعارف الجديدة يجد الطلبة رغبة تامة وقوية لقراءة هذه
الكتب والبحث عنها 17.

ومن خلال كل ما سبق ذكره فإن الزوايا ساهمت
بقسط وفير بمجهوداتها العلمية والعملية وكفاءاتها المختلفة في
دفع عجلة التعليم والتربية و تعزيز مبادئ الدين الإسلامي
وترسيخ قواعد اللغة العربية وما ينبثق منها من علوم مختلفة
وذلك منذ أن وجدت الزوايا في الجزائر من عهودها الأولى
إلى نهاية العهد العثماني و بداية عهد الاحتلال الفرنسي
وحتى بعد الثورة.

كما يرى أبو القاسم سعد الله في كتابه (تاريخ
الجزائر الثقافي) أنه زيادة على الدور التعليمي، يعهد لشيخ
الزاوية أو مقدمها غرس بذرة الفكر الباطني في التلميذ أوالمريد،
وفيها يأخذ العهد أو الطريقة 18. ويمكن تلخيص الدور
التعليمي والتربوي للزوايا في الآتي:

- تلقين مبادئ التصوف و الجمع بينه و بين العلم
- تدريس الحديث والتفسير و مبادئ الدين
الاسلامي

- نشر الثقافة العربية و المحافظة على لغتها.
- بعض الزوايا كوّنّت خزائن للكتب والمخطوطات
النادرة، كما حوت عددا كبيرا من المصنفات في شتى فنون
العلم كالحديث والتفسير والفقه والتصوف وغيرها.

¹⁹- الحسن بن محمد الوزان: وصف إفريقيا ترجمة : محمد حجي ومحمد

الأخضر، ج1، الرباط 1980، ص 129-134.

²⁰ مقابلة مع الامام شتاتحة عمر، المرجع السابق.

¹⁶ رايح تركي ، مرجع سابق ، ص 294

¹⁷ مقابلة مع الامام شتاتحة عمر، مرجع سابق.

¹⁸-أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي المصدر السابق.الجزء الاول

التحديات، ظلت الأمة ترفض القبول بأي بديل، إذ كانت تستمد سعادتها من عقيدتها وتعزز بانتمائها الثقافي والقومي والوطني، مفضلة كل ما هو إسلامي ونافرة من كل ما هو أجنبي ودخيل. 21.

ولقد كانت تلك المؤسسات بمثابة حصون وقلاع للدراسة والدفاع ودافعت عن القيم والأخلاق الإسلامية وحافظت لاسيما في وطننا الغالي الحبيب الجزائر على مقومات الهوية الوطنية وصانت عناصر الشخصية العربية الإسلامية. 22.

لقد قام شيوخ الزوايا بلم صفوفهم لمواجهة هذا الاستعمار الهمجى، فأنشأت جمعية جامعة مشايخ الطرق الصوفية سنة 1938 م والتي كان هدفها نشر العلم ومعرفة وترسيخ القيم والأخلاق الإسلامية واللغة العربية.

اعتمدت السلطات الاستعمارية كل الأساليب لمحو الشخصية الوطنية من التقتيل والتعذيب والتجهيل ومصادرة أموال الزوايا وإفقار الأهالي وحرق الأرض، وسن القوانين الجائرة في حق الجزائريين 23. خلال المرحلة الممتدة من عام 1830 إلى 1880، ركزت الإدارة الاستعمارية الفرنسية على الحملات العسكرية الواسعة التي شنتها الجيش الفرنسي ضد مختلف أشكال المقاومة الشعبية، وعلى رأسها مقاومة الأمير عبد القادر في العقدين الأول والثاني من الاحتلال. ولم تتجه السلطات الفرنسية إلى بلورة سياسة استعمارية واضحة إلا لاحقاً، حيث تبنت جملة من الآليات المتغيرة، بدءاً بما سُمي بـ "سياسة الاندماج" و "المكاتب العربية" التي ارتبطت بالمراقبة والتجسس، مروراً بمشروع "المملكة العربية"، ثم العودة إلى توجه اندماجي جديد. وقد تُوج هذا

المسار بإصدار قانون الأهالي (الإنديجينا) سنة 1881، وهو أحد أكثر التشريعات تعسفاً بحق السكان الأصليين. ومع مجيء الجمهورية الثالثة، تعمق المسار الاندماجي عبر السعي إلى إخضاع الجزائريين للنظم التعليمية والسياسية الفرنسية، في إطار مشروع استعماري يهدف إلى طمس الهوية الوطنية وإدماج المجتمع الجزائري قسراً في البنية الفرنسية. 24 قصد محو كل مقاومته الشخصية وطمس معالم المجتمع الجزائري العربي المسلم.

يتبين مما سبق أن الاتهامات الموجهة للمؤسسات الدينية بالجمود أو الانغلاق تفتقر إلى العمق التحليلي، إذ إن الدور الذي أدته هذه المؤسسات كان حاسماً في صون الهوية الدينية والثقافية للجزائر طوال أكثر من قرن وثلاثة عقود من الاحتلال الفرنسي. ولم يكن هذا "الانغلاق" المزعوم سوى موقف واع يتجسد في الرفض والمقاومة والتمسك بالعقيدة الإسلامية وما تنطوي عليه من قيم أخلاقية وروحانية تشد إرادة الصمود والأمل والثبات.

لقد وقفت النخب الدينية من علماء ومصلحين موقفاً حاسماً حدّ من مساعي المستعمر لطمس الهوية، واستطاعت عبر جهودها أن تحافظ على استمرارية الوعي الديني واللغوي لدى المجتمع. وتشهد التجارب التاريخية بأن الدين ظلّ العامل الأعمق تأثيراً في كبرى التحولات والحركات الإنسانية، وأن بقية العوامل الأخرى لا تبلغ فعاليتها إلا بقدر اقترابها أو ابتعادها عن جوهر العقيدة الدينية التي تمنح الشعوب القدرة على المقاومة والتجدد.

تقع الزوايا غالباً في مناطق نائية بعيدة عن المراكز الحضرية والعلمية، وهو ما أتاح لها مجالاً أوسع للاضطلاع

²¹ محمد نسيب : مرجع سابق ، ص 47

²² مجلة عصور ، السنة الأولى 1423 ، ديسمبر 2002 ، مكتبة الرشاد

للطباعة والنشر والتوزيع ،. الجزائر العدد الثاني ، ص 104

²³ طيب جاب الله ، دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري ، مجلة معارف ، كلية العلوم الاجتماعية و الإنسانية ، جامعة البويرة ، السنة

الثامنة أكتوبر 2013 ، العدد ، 14 ، ص 146

²⁴ الطاهر زرهوني : مرجع سابق ، ص 16

أصبح الدور الاجتماعي للزوايا جزءاً أساسياً من وظائفها داخل المجتمع الجزائري، حيث تحولت إلى فضاءات يُعقد فيها الصلح بين الأفراد والجماعات بفضل تدخل مشايخها الذين استثمروا مكانتهم وهيبتهن الاجتماعية في احتواء الخلافات ومنع تفاقمها. وقد أصبحت بعض الزوايا بمثابة محاكم شرعية محلية، تُفضّ فيها النزاعات بين العائلات والقبائل، بل وتشهد معالجة الخلافات الأسرية تحت إشراف شيوخها. كما أسهمت الزوايا في تعزيز أواصر الأخوة بين القبائل والأعراش، والتدخل لإصلاح ذات البين خلال فترات التوتر والصراع. وإلى جانب ذلك، اضطلعت بدور إنساني بارز من خلال تقديم المساعدة للمحتاجين، خصوصاً في أوقات المجاعات، وظلت مثلاً للكرم والعطاء باعتبارها ملجأً للمسافرين وعابري السبيل، توفر لهم المأوى والطعام والملبس..28

خاتمة

لعبت الطرق الصوفية في الجزائر دوراً محورياً على امتداد أكثر من تسعة قرون، بدءاً من جهود أبي مدين شعيب، تلميذ عبد القادر الجيلاني، الذي أسهم في نشر الطريقة القادرية بالمغرب الأوسط قبل أن تمتد تأثيراتها إلى إفريقيا وتنشعب عنها طرق صوفية أخرى، مثل الشاذلية والدرقاوية، إضافة إلى الرحمانية، التيجانية، والسنوسية. وتعد هذه الطرق من حيث الجذور مؤسسات ذات منشأ جزائري، رغم انتشارها الواسع لاحقاً على المستويين الإقليمي والقاري. ورغم طابعها الديني الصرف، فقد اضطلعت هذه الطرق بأدوار متعددة تجاوزت إطارها الروحي.

فالزوايا التي نشأت في إطار هذه الطرق كانت مراكز مخصصة لتحفيظ القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية وترسيخ

بوظائف دينية متعددة. فقد أسهمت في صون السنّة ومحاربة الممارسات الدخيلة، وعملت على ترسيخ مبادئ الدين من خلال تعليم كتاب الله وبعض المتون الأساسية المرتبطة بالعبادات والمعاملات. كما تجاوز دورها الجانب التعليمي ليشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتصحيح المفاهيم العقدية وتوجيه المجتمع نحو الالتزام بالشعائر الدينية. وقد انعكس اهتمامها بالعلم ورعاية طلابه إيجابياً على الحياة الدينية عموماً، مما جعلها عنصراً فاعلاً في تربية المجتمع وتأطيره دينياً وروحياً.25

رابعا: دور الطرق الصوفية في حل مشاكل الافراد

و الجماعات:

نظراً لمرجعيتها الإسلامية و إيمانها العميق و التزامها بمنهج الدين الإسلامي و تطبيق تعاليمه و تطبيقها لقول الله تعالى : (و أصلحوا ذات بينكم ...) 26 اعتمدت الزوايا والطرق الصوفية على منهج يقوم على ترسيخ ثقافة الصلح بوصفها وسيلة لتحقيق الوحدة والتفاهم وتجاوز الخصومات داخل المجتمع. ولم يقتصر الحفاظ على التماسك الاجتماعي على طريقة واحدة، بل أسهمت مختلف الطرق الصوفية في نشر قيم المصالحة، ونبد التفرقة، ومعالجة النزاعات بين الأفراد والجماعات. وقد مكّنها هذا الدور من إحداث تأثير إيجابي في البنية الاجتماعية والتربوية للجزائر، خاصة في الفترات الحرجة التي سعى فيها المستعمر إلى تفتيت المجتمع وإثارة الانقسامات بين أفرادها، بل وحتى داخل الأسرة الواحدة. وهكذا شكّلت الطرق الصوفية درعاً اجتماعياً حافظ على وحدة المجتمع في مواجهة محاولات الاختراق والتفكيك..27

25 محمد بن عبد الله الخليلي: الدرة الجليلة في مناقب الخليفة، تحقيق أحمد عمالك، منشورات وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية المغربية، المغرب، 2014 م، ص 305.

26 سورة الأنفال، الآية 1
مقابلة مع الامام شتاتحة عمر، مرجع سابق. 27
28 مقابلة مع الامام شتاتحة عمر، مرجع سابق.

مبادئ الدين من فقه وحديث وأحكام الميراث، غير أن مهامها تطورت تبعاً للظروف التاريخية، لتتحول تدريجياً إلى مؤسسات ذات وظيفة اجتماعية واسعة. فقد قامت بدور محاكم عرفية أو شرعية تُحلّ فيها النزاعات بين الأفراد والجماعات، اعتماداً على المكانة الرفيعة التي تمتع بها شيوخها واحترام المجتمع لسلطتهم المعنوية، مما جعل قراراتهم نافذة وذات أثر ملموس.

كما اضطلعت الزوايا بأدوار إنسانية بارزة تمثلت في إيواء الفارين والمطاردين، وتقديم الدعم للفقراء والضعفاء وعابري السبيل عبر توفير المأكل والمأوى والحماية. وإلى جانب وظائفها الدينية والتربوية والاجتماعية، امتد نشاط الطرق الصوفية إلى المجالين السياسي والعسكري، خاصة مع نهاية العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي. فقد شهدت تلك الفترة حركات مقاومة مسلحة قادتها بعض الطرق، على غرار انتفاضات الدرقاوية ضد سلطة البايات في الغرب الجزائري، والحركات التي قادتها الزاوية التيجانية وأتباعها.

ومع مطلع الاحتلال الفرنسي، برز تأثير الطرق الصوفية في اتجاهين متكاملين: الأول حفاظها على ثوابت الشخصية الوطنية، من لغة عربية ودين إسلامي، في مواجهة مشاريع الاستعمار الهادفة إلى تفكيك البنية الثقافية والاجتماعية للمجتمع الجزائري؛ والثاني قيادتها لجهود المقاومة المسلحة. فجميع ملامح المقاومة التي شهدتها الجزائر خلال القرن التاسع عشر ارتبطت بشكل مباشر أو غير مباشر بالطرق الصوفية وشيوخها، بدءاً بمقاومة الأمير عبد القادر ذات الجذور القادرية، مروراً بمقاومة بومعزة الشاذلية الممتدة بين الونشريس والقبائل وأولاد نائل، ثم مقاومة موسى الدرقاوي الشاذلي التي انتهت باستشهاده في انتفاضة الزعاطشة بقيادة الرحمانيين. واستمر الدور الجهادي للطرق الصوفية ليشمل أبرز الثورات والانتفاضات، مثل ثورة بوسعادة (1849)، وانتفاضتي لالة فاطمة نسومر وبوغلة

(1861)، ومقاومة الأغواط (1852)، وانتفاضات أولاد طعبة (1852) وأولاد أملخوة (1854)، وصولاً إلى حركات التلي بلكلحل وبن ثامر بن شهرة ومحمد بن عبد الله شريف ورقلة، ثم ثورتي أولاد سيدي الشيخ (1864) وبوعمامة (1881). وقد شكّلت هذه الطرق عبر مختلف محطاتها أحد أعمدة المقاومة الشعبية التي واجهت الاستعمار الفرنسي طوال فترة وجوده في الجزائر.

قائمة المراجع

أولاً: المراجع العربية

1. القرآن الكريم.
2. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1989.
3. الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجزء الأول، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1980.
4. تركي رابح، التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1981.
5. الطاهر زرهوني، التعليم في الجزائر قبل وبعد الاستقلال، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 1994.
6. طيب جاب الله، "دور الطرق الصوفية والزوايا في المجتمع الجزائري"، مجلة معارف، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة البويرة، السنة الثامنة، العدد 14، أكتوبر 2013.
7. عربوة عبد الله، طرق الوقاية والعلاج من ظاهرة الانتحار في المجتمع الجزائري من منظور الخدمة الاجتماعية الإسلامية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، 2008-2009.

8. عبد الحميد محمد عبد الحميد، علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، 1997.
9. عبد الرحمن هزرشي، عطاء الله فشار، "دور زوايا منطقة الجلفة في الخدمة الاجتماعية إبّان الفترة الاستعمارية"، مقال، جامعة الجلفة، 2012.
10. انتصار محمد يوسف، ضرورة الإشراف الاجتماعي في المرحلة الأساس في السودان، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، 1999.
11. مجلة عصور، السنة الأولى، العدد الثاني، ديسمبر 2002، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
12. محمد بن عبد الله الخليلي، الدرة الجليلية في مناقب الخليفة، تحقيق أحمد عمالك، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 2014.
13. محمد نسيب، زوايا العلم والقرآن بالجزائر، دار الفكر، الجزائر، 1998.
14. رشيد زرواتي، مدخل إلى الخدمة الاجتماعية، مؤسسة ابن سينا للطباعة والنشر والتوزيع ومنشورات جليطي، الجزائر، 1419 هـ / 2000 م.
15. مقابلة مع الشيخ شتائحة عمر، إمام وأستاذ بمسجد علي بن أبي طالب، عميد الأئمة بمسعد، 2017.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

15. Yvonne Turin, *Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale: école, médecine, religion (1830–1870)*, 1978.